جامعة القاهرة
كلية دار العلوم
قسم الفلسفة الإسلامية

الفكر الكلامي للمدرسة الماتريدية في القرن السادس الهجري

بحث مقدم من الطالب
عابد أحمد خدر
لنيل درجة الماجستير في الفلسفة الإسلامية

تحت إشراف

الأستاذ الدكتور عبد الراضي محمد عبد المحسن
أستاذ ورئيس قسم الفلسفة الإسلامية
ووكيل الكلية لشئون خدمة المجتمع

١٤٣٥هـ ٢٠١٤م

شكر وتقدير

بداية أتوجه في هذا المقام بالشكر لله سبحانه وتعالى ولي كل نعمة وفضل على ما هداني إليه في هذه الدراسة.

وانطلاقا من قول النبي ج: «**من لا يشكر الناس لا يشكر الله**»، يطيب لي أن أتقدم بخالص شكري وعظيم تقديري إلى أستاذي الفاضل **الأستاذ الدكتور عبد الراضي محمد عبد المحسن** أستاذ ورئيس قسم الفلسفة الإسلامية بدار العلوم ووكيل الكلية لشئون خدمة المجتمع، الذي أكرمني بالإشراف على هذا البحث، رغم مشاغله العلمية والإدارية الكثيرة، فكان خير معين لي.

ولا أملك ردا لفضل إحسانه عليَّ سوى التوجه إلى الله تعالى داعيا له التوفيق والسداد، وأن يبارك له في عمره وعلمه.

كما أقدم شكري وتقديري إلى الأستاذين الفاضلين:

الأستاذ الدكتور أبو اليزيد أبو زيد العجمي أستاذ الفلسفة الإسلامية بكلية دار العلوم جامعة القاهرة.

الأستاذ الدكتور حسين عبده أستاذ الفلسفة الإسلامية بكلية الآداب جامعة عين شمس

على تفضلهما بقراءة هذه الرسالة ومناقشتها وتقويمها وتوجيه كاتبها، وأسأل الله تعالى أن يجعل ذلك في ميزان حسناتهما، وأن يجزيهما عني خيرا الجزاء.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الخلق والمرسلين سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمين. وبعد:

فإن علم الكلام يعد من أهم العلوم التي أنتجه الفكر الإسلامي، من حيث كونه يبحث القضايا العقدية بمنهج عقلي سليم؛ ومستند إلى الشرع في الوقت ذاته، وقد شغل هذا العلم جانبا كبيرا من تفكير علماء الإسلام ودراساتهم، ويرجع الفضل الكبير في هذا المجال إلى المعتزلة نظرا لأنها من أقدم المدارس التي ابتكرت مبادئ هذا العلم ووضع معالمه الأصلية في التاريخ الإسلامي، ولم يقتصر دور المعتزلة على مرحلة البناء والتأسيس فقط؛ بل لعبوا دورا كبيرا في تطوير هذا العلم من حيث المنهج والقضايا، واتساع رقعة البحث فيه، إلا أن إسرافهم في استخدام العقل في معظم المسائل الكلامية، أدى إلى ظهور مذاهب ومدارس أخرى متعددة؛ حاولت أصحابها إقامة توازن بين الشرع والعقل وإعطاء كل واحد منهما حقه في البحوث الكلامية، كالأشاعرة والماتريدية.

وقد جاءت هذه الدراسة بعنوان (**الفكر الكلامي للمدرسة الماتريدية في القرن السادس الهجري**) لتبرز موقف الماتريدية من علم الكلام، وما بذله من جهود في ترسيخ أسسه ومبادئه وفق منهج جامع بين النقل والعقل. وقد تم اختيار القرن السادس الهجري، ليشكل الإطار الزماني لهذه الدراسة لما له من أهمية بالغة في تاريخ الفكر الماتريدي، حتى يمكن القول بأنه من أهم المراحل؛ وذلك لظهور أعلام عظام كان لها أكبر الأثر في تنظيم وتأصيل أفكار المدرسة وتوجيه آرائها، وما صحب ذلك من كثرة الإنتاج الكلامي والأصولي الذي قدمه نظار الماتريدية في هذه الفترة، وتضاف إلى ذلك كثرة المناظرات والمناقشات الكلامية التي جرت بين متكلمي الأشاعرة والماتريدية ممثلة في الإمام الرازي (ت٦٠٦هـ)، ونور الدين الصابوني (ت٥٨٠هـ) في أواخر القرن السادس الهجري.

وقد اعتمدت الدراسة لتصوير المذهب الماتريدي في الفترة المعنية، على أهم الشخصيات التي كان لها إنتاج فكري مباشر في علم الكلام، أو في أصول الفقه؛ ولكن بقدر ما يخدم البحث ويرتبط به، ويأتي في مقدمة هؤلاء (أبو المعين ميمون بن محمد النسفي السمرقندي ت٥٠٨هـ)، و (الإمام الزاهد أبو إسحاق الصفار البخاري ت٥٣٤هـ)، و (نجم الدين عمر بن محمد بن أحمد النسفي السمرقندي ت٥٣٧هـ)، و(أبو الثناء

محمود بن زيد اللامشي)، و (علاء الدين شمس النظر أبي بكر محمد بن أحمد السمرقندي ت٥٣٩هـ)، و(أبو الفتح علاء الدين محمد بن عبد الحميد الأسمندي السمرقندي ت٥٥٢هـ)، و(أحمد بن محمود نور الدين الصابوني البخاري ت٥٨٠هـ)، و(جمال الدين أحمد بن محمود الغزنوي ت٥٩٣هـ).

ولابد من الإشارة إلى أن بعض هؤلاء المتكلمين ممن تعنى الدراسة ببيان آرائهم، قد عاش طرفا من حياته خلال القرن الخامس الهجري؛ إلا أنه لا يمكن التاريخ لظهور الأفكار ونضجها عند متكلم أو فيلسوف من القدامى على نحو دقيق في معظم الأحيان، ولذلك جرت العادة على التاريخ لذلك بسنة الوفاة.

أهمية الموضوع وأسباب اختياره:

أولا: تبرز أهمية هذه الدراسة من كونها تكشف عن أفكار مدرسة عريقة من المدارس الكلامية السنية، وتجيب عن تساؤلات هامة، كما أنها تكشف عن جوانب من التطور الذي شهدته الماتريدية من حيث المنهج والمذهب في هذه الفترة الزمنية التي اختارها البحث.

ثانيا: قلة الدراسات التي تناولت التراث الماتريدي بالبحث والدراسة، إذا ما قورنت بالدراسات الكثيرة التي تناولت المذاهب الكلامية الأخرى من جوانب متعددة، مثل الأشاعرة والمعتزلة، كما أن أغلب ما قدم في هذا المجال؛ إما دراسات جزئية، أو دراسات عامة لا تقتصر على فترة معينة؛ مما يمكن القول معه: إنها لا تعطي صورة متكاملة لجميع القضايا التي بحثها الماتريدية.

ويمكنني في هذا الصدد أن أشير إلى بعض الدراسات:

أولا: «**أبو المعين النسفي وآراؤه الكلامية**» للأستاذ الدكتور عبد الحي محمد قابيل، وهي أطروحة ماجستير قدمت في قسم الفلسفة بكلية الآداب، جامعة القاهرة عام ١٩٦٩م، بإشراف الأستاذ الدكتور أحمد فؤاد الأهواني، ولدى التدقيق في هذه الدراسة؛ يتبين أن الباحث قد اقتصر على جوانب معينة من مذهب النسفي الكلامي دون التوسع فيه، ومع ذلك فالسمة الغالبة على البحث هي الاستعانة بآراء غيره أكثر من النسفي.

ثانيا: «**منهج الأشاعرة والماتريدية في علم الكلام مع دراسة تطبيقية لمنهج كل منها في الإلهيات**» للدكتور محمد حسن أحمد حسانين، وهي أطروحة تقدم بها الباحث للحصول على درجة الدكتوراه من قسم العقيدة والفلسفة، كلية أصول الدين جامعة الأزهر، بإشراف الأستاذ الدكتور صالح موسى شرف، وكما هو واضح

من عنوان هذه الدراسة فإنها تتناول جانبا واحدا من جوانب علم الكلام وهو الإلهيات، وأيضا فإنها دراسة عامة غير مقتصرة على الفكر الماتريدي.

منهج البحث:

وقد اقتضت طبيعة الدراسة استخدام أكثر المناهج المتبعة في الدراسات العلمية النظرية؛ كالمنهج التاريخي لتتبع جذور المسائل والقضايا الكلامية، وتطورها وأبرز القائلين بها، والمنهج التحليلي لتحليل القضايا الكلامية وتقيمها وإبداء الرأي فيها أحيانا، والمنهج المقارن للوقوف على أوجه التشابه بين الماتريدية وغيرهم من المذاهب الكلامية الأخرى وبخاصة المعتزلة والأشاعرة، والمنهج النقدي الذي يعد تتميما للمناهج الأخرى.

خطة البحث:

وقد حاولت أن تكون خطة البحث شاملة لمعظم المسائل والقضايا التي تطرق إليها المدرسة الماتريدية في القرن السادس الهجري بحيث تعطي صورة متكاملة لهذه الدراسة. وانطلاقا من هذا التصور فقد جاءت خطة البحث في تمهيد وستة فصول وخاتمة:

التمهيد:

وقد بدأته بالوقوف عند نشأة المدرسة الماتريدية ومؤسسها، وكذلك الجذور التاريخية التي تنتمي إليها الماتريدية، ثم عرضت بعد ذلك لانقسام المدرسة الأم إلى اتجاهين رئيسيين هما: السمرقنديون والبخاريون.

الفصل الأول: المنهج الماتريدي.

وقد عرضت فيه للمنهج الذي اتبعه الماتريدية في معالجتهم للمسائل الكلامية، موضحا أثناء ذلك موقفهم من النظر العقلي ومكانته لديهم، والدليل النقلي، والعلاقة التي تربط هاتين الدعامتين الأساسيتين بعضهما ببعض، وما نتج عن ذلك من التأويل والتفويض.

الفصل الثاني: الإلهيات.

وهو أكبر فصول الرسالة من حيث الحجم، وقد تناولت فيه القضايا العقدية التي اصطلح عليها المتكلمون بالإلهيات وذلك من خلال خمسة مباحث، تناولت فيها الاستدلال على وجود الله تعالى بالأساليب

التي قدمها الفكر الماتريدي، عقبه الحديث عن أسماء الله الحسني، والأحكام أو المقدمات العامة التي تتعلق بالصفات الإلهية، ثم عرضت موقف الماتريدية من الصفات السلبية والإيجابية.

الفصل الثالث: مشكلة الجبر والاختيار.

وقد خصصته للحديث عن مشكلة الجبر والاختيار، وما يتعلق بها من مباحث القدرة والتكليف بما لا يطاق، ومسألة التحسين والتقبيح والصلاح والأصلح.

الفصل الرابع: النبوة والإمامة.

وقد تناولت فيه إمكان النبوة ووجوبها، والمسالك التي حاول المتكلمون من خلالها إثبات نبوة النبي، وآراء المتكلمين في العصمة، ثم انتقلت بعد ذلك للحديث عن الإمامة واختلاف المتكلمين في وجوبها وشروطها وكيفية اختيار الإمام وما يتعلق بذلك.

الفصل الخامس: الإيمان.

وقد عرضت فيه لموقف الماتريدية من حقيقة الإيمان واختلافهم في ذلك، وكذلك موقفهم من زيادة الإيمان ونقصانه والاستثناء فيه، والعلاقة التي تربط الإيمان بالإسلام، وإيمان المقلد.

الفصل السادس: السمعيات.

ويتميز هذا الفصل بالاختصار مقارنة بباقي الفصول، نظرا لقلة المادة العلمية، حيث إن الماتريدية لم يعتنوا عناية ذات بال بهذا الجانب العقائدي في هذه الفترة الزمنية، وقد عرضت فيه لبعض المسائل المتعلقة بالآخرة، كإثبات عذاب القبر، والبعث، والصراط والميزان، وغير ذلك.

الخاتمة.

وقد سجلت فيها أبرز النتائج التي توصل إليها البحث، ثم أعقبت بقائمة المصادر والمراجع التي اعتمدت عليها في إعداد الرسالة.

وفي الختام أسأل الله سبحانه وتعالى أن يتقبل عملي هذا، وأن يجعله خالصا لوجهه الكريم، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

التمهيد:

ويشتمل على:

أولا: نشأة المدرسة الماتريدية

ثانيا: اتجاهات المدرسة الماتريدية

أولا: نشأة المدرسة الماتريدية

الماتريدية مدرسة من المدارس الكبرى الكلامية، وهي تمثل الجناح الثاني لمدرسة أهل السنة والجماعة، وقد اشتهرت هذه المدرسة باسم الماتريدية نسبة إلى الشيخ أبي منصور الماتريدي (ت٣٣٣هـ)[١]، الذي يعتبر مؤسس علم الكلام السني[٢]، القائم على نصرة عقيدة أهل السنة والجماعة عن طريق العقل، والشيخ الماتريدي وإن كان معاصرا للإمام الأشعري إلا أنه لم يثبت وجود صلات بينهما، كما أن طريقة الماتريدي ومنهجه فيه مخالفة من بعض جوانبها لطريقة الأشعري ومنهجه، وإن كان الاتفاق بينهما كبيرا في الهدف وطريقة الوصول إليه[٣].

وقد ظهرت هذه المدرسة استجابة للحظة تاريخية لها أهميتها في تاريخ الفكر الإسلامي حيث كان الناس يعاني من غلو العقليين وعلى رأسهم المعتزلة، وغلو النقليين وفي مقدمتهم الحشوية. وفي وسط هذا الصراع بين المتمسكين بالنص والمقدمين للعقل ظهر الإمام أبو منصور الماتريدي، وتبنى قضية الدفاع عن العقيدة

---

[١] انظر: أبو الخير محمد أيوب علي: عقيدة الإسلام والإمام الماتريدي، المؤسسة الإسلامية بنغلادش، الطبعة الأولى، ١٩٨٣م، المقدمة، أستاذنا د. حسن الشافعي: المدخل إلى دراسة علم الكلام، مكتبة وهبة، الطبعة الرابعة، ١٤٣٤هـ_ ٢٠١٣م، ٨٤.

[٢] وقد ذهب إلى ذلك محققا كتاب التوحيد حيث صرحا بأن المؤسس الحقيقي لعلم الكلام السني هو الإمام أبو منصور الماتريدي وليس الشيخ أبا الحسن الأشعري، ويعود ذلك في نظرهما إلى أن كتاب اللمع الذي يعد من أهم كتبه الكلامية ويعكس آراؤه الشخصية لم يتطرق إلى كل المسائل الكلامية، في حين أن كتاب التوحيد للماتريدي يعتبر مصدرا يحتوي على الأصول الرئيسية الثلاثة (الإلهيات والنبوات والسمعيات) التي تشكل الخط الأساسي للمؤلفات الكلامية في الوسط السني فيما بعد. انظر: كتاب التوحيد، للإمام أبي منصور الماتريدي، تحقيق: د. بكر طوبال أوغلي، د. محمد آروتشي، دار صادر_ بيروت، الطبعة الثانية، ٢٠١٠م، ٣١.

[٣] د. على عبد الفتاح المغربي: إمام أهل السنة والجماعة أبو منصور الماتريدي وآراؤه الكلامية، مكتبة وهبة، الطبعة الثانية،١٤٣٠هـ_ ٢٠٠٩م، ٦. وقد تنبه إلى ذلك الشيخ أبو زهرة حيث يرى أن الماتريدي والأشعري وإن تلاقيا في كثير من النتائج إلا أن منهجهما يختلف عن الآخر، فعند الدراسة العميقة لآراء كلا الإمامين نجد أن ثمة فرقا في التفكير وفيما انتهى إليهما، ولا شك أن كلا منهما كان يحاول إثبات العقائد بالعقل والبراهين، إلا أن أحدهما كان يعطي العقل سلطانا أكثر مما يعطيه الآخر. انظر: محمد أبو زهرة: تاريخ المذاهب الإسلامية، دار الفكر العربي _القاهرة ١٤٣٠هـ_٢٠٠٩م، ١٨٢_١٨٥.

الإسلامية الصحيحة، واعتنى بالرد على المعتزلة في تقديمهم العقل على النقل، وفي نفس الوقت برهن على المسائل الاعتقادية وفق منهج جمع فيه بين العقل والنقل معا بحيث يتضح من منهجه أن العقل والنقل متآخيان متعاضدان وليسا متعارضين[1].

وفي الحقيقة ترجع الجذور التاريخية للمذهب الماتريدي الكلامي إلى الفقيه الكبير أبي حنيفة النعمان (ت١٥٠هـ) الذي لا يمكن تجاوزه في الحديث عن المدرسة الماتريدية، فقد نشأ أبو حنيفة في العراق موطن الأديان والمذاهب المختلفة، فوقف للدفاع عن العقيدة الإسلامية والرد على المخالفين معتمدا في ذلك على الأدلة العقلية والنقلية مدة طويلة قبل تفرغه للفقه[2].

وهناك العديد من الروايات التي تثبت وتدل على مبلغ اهتمام أبي حنيفة بعلم الكلام وقضاياه، فدرس أبو حنيفة (الكلام) في بداية حياته العلمية دراسة عميقة، كان لها أثر كبير في توجيه آرائه ورسم منهجه في البحث والتقرير.

ومن هذه الروايات ما يحكيه الإمام أبو حنيفة عن نفسه: "كنت رجلا أعطيت جدلا في الكلام فمضى دهر فيه أتردد، وبه أخاصم، وعنه أناضل، وكان أصحاب الخصومات والجدل أكثرها بالبصرة، فدخلت البصرة نيفا وعشرين مرة، منها ما أقيم سنة أو أقل أو أكثر، وكنت قد نازعت طبقات الخوارج؛ من الأباضية، والصفرية، وغيرهم، وطبقات الحشوية"[3].

ومنها ما قاله أيضا: "كنت أنظر في الكلام حتى بلغت فيه مبلغا يشار إلي فيه بالأصابع"[4]. وحكي عنه أيضا: "لم يزل أبو حنيفة يلتمس الكلام، ويخاصم الناس، حتى مهر في الكلام"[5].

---

[1] انظر: د. إبراهيم مدكور: في الفلسفة الإسلامية منهج وتطبيقه، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثالثة، د.ت، ٢/ ٥٦، أستاذنا الدكتور محمد السيد الجليند: التمهيد لدراسة علم الكلام، الدار المصرية السعودية، القاهرة، ٢٠١٠م، ١٠٥_١٠٦.

[2] انظر: البياضي: إشارات المرام من عبارات الإمام، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، الطبعة الأولى، ١٣٦٨هـ_١٩٤٩م، ٤، د. فيصل بدير عون: علم الكلام ومدارسه، مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة السادسة، ٢٠١٠م، ٣٣٣.

[3] موفق بن أحمد المكي: مناقب الإمام الأعظم أبي حنيفة، دائرة المعارف النظامية، الهند، حيدر آباد، الطبعة الأولى، ١/ ٥٩.

[4] الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، تحقيق: د. بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ_٢٠٠٢م، ١٥/ ٤٤٤.

[5] المكي: مناقب أبي حنيفة، ١/ ٦٣.

ويستخلص من هذه النصوص ما يلي:

أولا: إن أبا حنيفة تعلم علم الكلام، وتناقش في مسائله، وناظر وجادل، بل كان يجد فيه متعة نفسه فيذهب لمناقشة الفرق المتخلفة الموجودة بالبصرة.

ثانيا: إن الجدل في أصول العقائد كان قد استهواه في صدر حياته حتى بلغ فيه شأنا عظيما، وصارت له طريقة في فهم أصول الدين تختلف عن طريق معاصريه[1].

وقد ثبت أن الإمام أبا حنيفة حتى بعد انصرافه إلى الفقه كان يجادل الفرق المختلفة في أصول العقيدة حسب مقتضيات الأحوال دفاعا عن الدين، فقد ساور الخوارج المسجد ودخلوا حلقته فجادلهم، وجادل غلاة الشيعة فأفحمهم[2].

ويذكر أبو إسحاق الصفار (ت٥٣٤هـ) أحد أعلام المدرسة الماتريدية أن أبا حنيفة تناظر مع صاحب غيلان الدمشقي (ت١٢٥هـ) القدري فأفحمه، حتى قال صاحب غيلان: هل من توبة؟ قال أبو حنيفة: بلى، قال: ما توبتي؟ قال: ترجع إلى بلادك فتردهم عما أغويتهم[3].

وقد ترك أبو حنيفة بعض الرسائل في علم الكلام، وهي الفقه الأكبر، والفقه الأبسط، والعالم والمتعلم، ورسالته إلى أبي مسلم البتي، والوصية، وهي رسائل صغيرة الحجم لكنها عظمية المضمون لاشتمالها على أمور في العقيدة على مذهب أهل السنة والجماعة[4]. ومن هنا يمكن القول بأن تلك المؤلفات كانت بداية تأسيس أول مدرسة كلامية سنية على يد أبي حنيفة النعمان في العراق[5]. ومع هذه المكانة العظيمة التي وصل إليها الإمام أبو حنيفة؛ نجد أن علماء العراق لم يهتموا بدراسة آرائه في العقيدة، بل اكتفوا بما نشر بينهم من آراء الفقهاء والمحدثين أولا، ثم بآراء الأشاعرة أخيرا، بينما نالت تلك الآراء اهتماما بالغا وعناية خاصة من قبل

---

[1] انظر: محمد أبو زهرة: أبو حنيفة حياته وعصره، دار الفكر العربي، الطبعة الثانية، د.ت، ٢٧.

[2] أبو زهرة: أبو حنيفة حياته وعصره، ٢٧.

[3] الصفار: تلخيص الأدلة لقواعد التوحيد، تحقيق: د. عبد الله محمد عبد الله إسماعيل، المكتبة الأزهرية للتراث، الطبعة الأولى، ١٤٣٢هـ_٢٠١٢م، ١٤٠.

[4] د. علي عبد الفتاح المغربي: أبو منصور الماتريدي وآراؤه الكلامية، ٢١.

[5] انظر: د. علي سامي النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، دار السلام، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ_٢٠٠٨م، ١/ ٢٥٩.

علماء ما وراء النهر؛ وكان لها صدى كبير وأثر عظيم في تكوين نشأتهم الفكرية والعقدية، فقاموا بشرحها ونشرها وتوضيحها والتعليق عليها وتأييدها بالأدلة العقلية والأقيسة المنطقية[1]. مما أدى في النهاية إلى تأسيس مدرسة كلامية كبرى لها رجالها وأفكارها الخاصة. وبهذا تكونت مدرسة الحنفية في علم الكلام، إلى جانب المدرسة الحنفية في الفقه معا.

وكان أبو منصور الماتريدي من أكبر وأشهر المتكلمين الذين اهتموا بشرح وتوضيح آراء أبي حنيفة في العقيدة، فقد عكف على رواية ودراسة الكتب المنسوبة إليه، وأخذت شكلا آخر على يديه، فكانت هذه المؤلفات بمثابة بيان لعقيدة أهل السنة والجماعة وما يصح الاعتقاد عليه لكن من غير أدلة تفصيلية، وقد تحولت هذه العقيدة وما تضمنها من أصول إلى علم كلام على يد أبي منصور الماتريدي، لأنه حقق تلك الأصول في كتبه بقواطع الأدلة، وأتقن التفاريع بلوامع البراهين اليقينية[2].

فكان بذلك متكلم مدرسة أبي حنيفة ورئيس أهل السنة والجماعة في بلاد ما وراء النهر[3]، ولذلك سميت المدرسة باسمه، وأصبح المتكلمون على مذهب الإمام أبي حنيفة في بلاد ما وراء النهر يسمون بالماتريدية، واقتصر إطلاق اسم أبي حنفية على الأحناف المتخصصين في مذهبه الفقي[4].

ويصور لنا أبو المعين النسفي (ت٥٠٨هـ) العلاقة الفكرية الوطيدة التي تربط الماتريدي بأبي حنيفة، فهو يصور الماتريدي بأنه يتابع أبي حنيفة في الأصول والفروع، وفي ذلك يقول: "والشيخ الإمام أبو منصور الماتريدي رحمه الله كان من أشد الناس اتباعا لأبي حنيفة في الأصول والفروع جميعا"[5].

إذن فنحن أمام مدرسة حنفية باعتبار مؤسسها الأول، ماتريدية باعتبار الشارح لمبادئها وتوضيح مسائلها بالأدلة، وهذا ما عبر عنه المستشرق ماكدونالد فقال: "لا ندري كيف عرفت مدرسة أبي حنيفة في

---

[1] محمد أبو زهرة: تاريخ المذاهب الإسلامية، ص١٨٣.

[2] البياضي: إشارات المرام، ٢٣.

[3] طاش كبرى زاده: مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ_١٩٨٥م، ٢/ ١٣٣.

[4] د. فتح الله خليف: مقدمة تحليلية لكتاب التوحيد للماتريدي، دار الجامعات المصرية، د.ت، ٤_٥.

[5] أبو المعين النسفي: التمهيد في أصول الدين، تحقيق: د. عبد الحي قابيل، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٤٢٦هـ_٢٠٠٥م، ١٦_١٧.

علم التوحيد، بمدرسة الماتريدي، وإطلاق لقب المتكلم على الماتريدي قد يكون معناه أنه كان متكلما في مدرسة أبي حنيفة بخلاف الفقهاء الذين اشتغلوا بمذهبه الفقهي"[1].

وقد صنف الإمام الماتريدي في الموضوعات التي عالجها وتصدى لدراستها كتبا كثيرة، منها: كتاب التوحيد، وكتاب المقالات، وكتاب رد أوائل الأدلة للكعبي، وكتاب رد تهذيب الجدل للكعبي، وكتاب تأويلات أهل السنة، وكتاب مآخذ الشريعة، وكتاب رد الأصول الخمسة لأبي عمر الباهلي، وكتاب الرد على القرامطة، وغيرها الكثير[2]. وكل هذا يؤكد على أن الماتريدي لم يكن مجرد شارح لمذهب أبي حنيفة، بل كان مبتكرا له منهجه ومذهبه الكلامي الخاص[3].

وقد تخرج في مدرسة الماتريدي أربعة من العلماء الكبار حملوا المذهب من بعده، وهم: أبو القاسم إسحق بن محمد بن إسماعيل الشهير بالحكيم السمرقندي (ت٣٤٢هـ)، والإمام أبو الحسن علي بن سعيد الرستغفني (ت٣٤٥هـ)، والإمام أبو محمد عبد الكريم بن موسى البزدوي (ت٣٩٠هـ)، وأبو عبد الرحمن بن أبي الليث البخاري[4].

ولكن هناك ملاحظة لافتة للنظر؛ وهي أن هؤلاء العلماء الذين تخرجوا على أبي منصور الماتريدي لم يعنوا عناية ذات بال بالجانب الكلامي، ولم يسلكوا في ذلك مسلك شيخهم، بل كان جل اهتمامهم منصبا على الفروع الفقهية، ولذلك لم نجد في تراثهم الكلامي إلا نصا موجزا لأحد هؤلاء التلاميذ، وهو كتاب "سواد الأعظم" لأبي القاسم إسحق بن محمد الشهير بالحكيم السمرقندي، ويقوم الكتاب على تحليل مفهوم السواد الأعظم الذي ورد في الحديث النبوي، يقول السمرقندي: "وعلامة السواد الأعظم أن يكون الإنسان متصفا باثنين وستين خصلة"[5]. ثم قسم الكتاب بناء على ذلك إلى ستين مسألة تناول كل واحدة منها باختصار، ومن الجدير بالذكر أن هذه المسائل الستين ليست كلها كلامية، بل كثير منها مسائل فروعية فقهية، كما أن

---

[1] ماكدونالد: دائرة المعارف الإسلامية، مقالة الماتريدية، نقلا عن: د. أبو الخير: عقيدة الإسلام والإمام الماتريدي، المقدمة.

[2] انظر: أبو المعين النسفي: تبصرة الأدلة في أصول الدين، تحقيق وتعليق: كلود سلامة، المعهد العلمي الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٩٣، ١/ ٣٥٩.

[3] انظر: د. على عبد الفتاح المغربي: أبو منصور الماتريدي وآراؤه الكلامية، ٢٠.

[4] د. فتح الله خليف: مقدمة تحليلية لكتاب التوحيد، ٥.

[5] الحكيم السمرقندي: السواد الأعظم، مع شرحه سلام الأحكم لإبراهيم حلمي بن حسين الوفي، طبعة إستانبول، د.ت، ١٢.

الطابع الغالب على الكتاب هو الاعتماد على الدليل النقلي. وقد أرجع أحد الباحثين المتخصصين في الفكر الماتريدي سبب ذلك إلى أمرين:

أولا: إن هؤلاء التلاميذ قد رأوا في آراء الشيخ أبي منصور الماتريدي الكلامية كفاية لهم، فلم تكن هناك حاجة تدعوا إلى الزيادة عليها، ولذلك وجدوا فيها خير تعبير عن اعتقاد أهل السنة والجماعة.

ثانيا: إن عدم وجود مناقشات جدلية بينهم وبين مخالفيهم في هذه الفترة الزمنية، ربما يكون سببا آخر في عدم نمو وتطور الجانب الكلامي عندهم[1].

ثانيا: اتجاهات المدرسة الماتريدية

والواقع أننا إذا تتبعنا آراء الماتريدية من خلال المصادر الموجودة بين أيدينا، سواء كانت في الفكري الكلامي أو الأصولي؛ فسنجد أن المدرسة قد انقسمت إلى اتجاهين أو مدرستين:

الأولى: مدرسة سمرقند: ويعتبر الإمام أبو منصور الماتريدي السمرقندي (ت٣٣٣هـ) مؤسس هذه المدرسة وشيخها، وهذا ما نلمسه بوضوح في ثنايا مؤلفات أصحابه وتلاميذه الذين جاؤوا بعده[2]. وقد انظم إلى هذا الفرع من الماتريدية؛ رجال كبار فتبنوا أفكار شيخهم ودافعوا عنها، وكان لهم أثر عظيم في تشييد قواعد المذهب وترتيب أفكاره، وذلك كالنسفيين والسمرقنديين والغزنويين وغيرهم، وتتميز المدرسة السمرقندية بالنزعة العقلية التي وظفتها في معظم القضايا الكلامية. ومن أبرز أعلام هذه المدرسة الإمام الماتريدي، وأبو المعين النسفي (ت٥٠٨هـ)، ونجم الدين النسفي (٥٣٧هـ)، وعلاء الدين السمرقندي (ت٥٣٩هـ)، وعبد الحميد الأسمندي (٥٥٢هـ)، وجمال الدين الغزنوي (ت٥٩٣)، وأبو البركات النسفي (ت٧١٠هـ) وأكمل الدين البابرتي (٧٨٦)، وغيرهم.

الثانية: مدرسة بخارى: وتمثلها أئمة الماتريدية من مدينة بخارى والبلدان الأخرى فيما وراء النهر،

---

[1] انظر: د. على عبد الفتاح المغربي: الفرق الكلامية الإسلامية مدخل ودراسة، مكتبة وهبة، الطبعة الثانية ١٤١٥هـ_١٩٩٥م، ٣٣٠.

[2] انظر: اللامشي: في أصول الفقه، تحقيق: عبد المجيد تركي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٥م، ٩٦_١٠٣_١٢٤_١٣٤_١٦٠، علاء الدين السمرقندي: ميزان الأصول في نتائج العقول، تحقيق: د. محمد زكي عبد البر، مكتبة دار التراث، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤١٨هـ_١٩٩٧م، ٩٢_١٥٦_٢١٤_٣٤٥.

وليس بين أيدينا نصوص تكفي للجزم بصحة نسبة تأسيس هذه المدرسة إلى شيخ معين، وأغلب الظن أن رئاسة هذا الفرع ترجع إلى أبي اليسر البزدوي (ت٤٩٣هـ) وعائلته، حيث إن جده عبد الكريم البزدوي (ت٣٩٠هـ)،كان من تلاميذ الإمام الماتريدي، كما أن كتاب أصول الدين للبزدوي قد حفظ لنا كثيرا من المسائل التي كانت موضع خلاف بين تلك المدرستين، وبناء على ذلك فمن المرجح أن يكون البزدوي هو الذي وضع منهج المدرسة البخارية ورسم أصولها وقررها، ومن ثم سار عليه المتأخرون.

وإذا كانت النزعة العقلية هي المسيطرة على تفكير أصحاب المدرسة السمرقندية؛ فإن نظيرتها البخارية تتميز عنها بالاعتماد على النقل أكثر من العقل. ومن رجال هذه المدرسة صدر الإسلام أبو اليسر البزدوي (ت٤٨٣هـ)، وأخوه أبو اليسر البزدوي، وشمس الأئمة الحلواني (ت٤٤٨هـ)، وأبو إسحاق الصفار (ت٥٣٤هـ)، ونور الدين الصابوني (ت٥٨٠هـ)، وعبد العزيز البخاري (ت٧٣٠هـ)، وصدر الشريعة المحبوبي (ت٧٤٧هـ)، وكمال الدين الأندكاني (ت٧٧٧هـ)، وكمال بن الهمام (ت٨٦١هـ).

وكان من أبرز القضايا الكلامية التي اختلفت فيها هاتان المدرستان في الفترة محل الدراسة:

(١) معرفة الله تعالى: فذهب السمرقنديون إلى أنها واجبة بالعقل، بينما ذهب البخاريون إلى أنها واجبة بالشرع، ولا يستقل العقل بإدراك ذلك.

(٢) حقيقة الإيمان: فقال البخاريون إنه عبارة عن التصديق بالقلب والإقرار باللسان، في حين يقتصر السمرقندويون على التصديق فقط.

(٣) التحسين والتقبيح العقلي: يرى السمرقنديون أن العقل يستقل بإدراك وجه الحسن والقبح في الأشياء، أما البخاريون فقالوا بخلاف ذلك بناء على قولهم في معرفة الله بالنقل.

(٤) مسألة التكليف بما لا يطاق: حيث منعه السمرقنديون، وأجازه البخاريون.

(٥) وجوب النبوة: يذهب السمرقندية إلى أن البنوة واجبة، وذلك بعكس البخاريين إذ قالوا بجوازها.
وقد كانت هذه الوقفة الإجمالية السريعة لعرض مثل هذه القضايا للتأكيد على وجود إتجاهين أو مدرستين مختلفتين في الأفكار والاهتمامات، وسنشير لذلك تفصيلا فيما بعد.

وعلى الرغم من وجود الخلاف المذكور؛ فإن الاتفاق بين المدرستين يغطي على معظم المسائل الاعتقادية، ذلك لأن الأصل الذي انبثقت منهما واحد وهو أبو حنيفة.

ولابد أن نشير هنا إلى ملاحظة مهمة؛ وهي أن تصنيف الماتريدية إلى مدرستين أو إتجاهين أحدهما يميل نحو استخدام العقل، والآخر يميل إلى النقل، إنما هو حكم على أغلب الأعلام التابعة لهما وليس على الكل، إذ إننا نجد في أثناء الدراسة رجالا ينتمون إلى مدرسة بخارى وفي الوقت نفسه يوافقون السمرقنديين في المسائل التي أصبحت موضع خلاف بينهما وبالعكس كذلك.

*** *** ***